إعدام صدام.. نهاية أم بداية؟

احمد الحبيشي

فيما كان المسلمون يتجهون إلى المساجد لأداء صلاة عيد الأضحى المبارك في الساعات الأولى من يوم السبت الموافق ٣٠ ديسمبر الماضي نقلت الفضائيات حديثا صوتيا للدكتور موفق الربيعي مستشار الأمن القومي لرئيس الوزراء العراقي نوري المالكي أعلن فيه خبر إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين، وزعم أنّ الأخير كان متهالكا وخائفا ومرعوبا، وفي وضع معنوي ضعيف ومنهار، لم يسبق له مثيل في حياة صدام حسين ، مشيراً إلى أنّ وقائع عملية الإعدام تم تصويرها كاملة في شريط فيديو لأغراض التوثيق فقط بحضوره شخصيا إلى جانب المدعي العام ورئيس وأعضاء محكمة التمييز، ورجل دين سني، بالإضافة إلى فرقة الإعدام التي قال الربيعي إنها تتكون من أربعة أشخاص فقط .

بعد اقل من ساعتين على إذاعة ذلك النبأ المصحوب بتصريحات صوتية لموفق الربيعي بثت القنوات الفضائية العربية والعالمية نقلاً عن التلفزيون العراقي الرسمي مقاطع صامتة من الشريط المسجل الذي قال موفق الربيعي إن تصويره قد تم لأغراض التوثيق فقط . ولعل ما جاء على لسانه في التصريح الذي أدلى به للقنوات الفضائية عن مظاهر الخوف والرعب التي زعم أنها انتابت صدّام حسين قبل الإعدام كان سببا في بث تلك المقاطع الصامتة التي تمت تحت ضغط من أطراف عراقية وأمريكية أزعجها توقيت الإعدام وتصريحات موفق الربيعي المجافية للحقيقة ، حيث ظهر الرئيس صدام حسين وهو يتقدم بخطى ثابتة إلى منصة الإعدام متماسكا وقويا ورابط الجأش بعد أن رفض ارتداء قناع الإعدام الأسود، على النقيض من تصريحات موفق الربيعي التي غلبت عليها نشوة الانتقام والافتراء والتشفي !!.

الثابت ان توقيت إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين في يوم عيد الأضحى المبارك لقي استنكاراً واسعا من قبل مصرَ والسعودية واليمن والعديد من الدول العربية والإسلامية والأجنبية من ضمنها دول الاتحاد الأوروبي، كما لقي ردود فعل غاضبة في الأوساط الشعبية داخل العراق وخارجه ، فيما انفردت ثلاث دول فقط بالإعراب عن سعادتها لإعدام صدام حسين وهي إيران وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية !!

وفي اليوم التالي بثت الفضائيات العربية والعالمية نقلا عن أحد مواقع شبكة الانترنت مقاطع بالصوت والصورة، تم تصويرها بكاميرا هاتف نقال بعد أن امتنعت عن عرض المشاهد التي تم تسريبها وبثها على الانترنت، وكان لافتا للنظر أنّ الذين حضروا عملية الإعدام لمراقبة سلامة المعايير والإجراءات القانونية، بحسب ما جاء في حديث موفق الربيعي رددوا هتافات طائفية وعبارات مُهينة لكرامة المحكوم عليه بالإعدام، فيما انبرى صوت واحد فقط هو صوت رجل الدين السني مطالبا الحاضرين بالتزام المعايير الأخلاقية والقيم الدينية والانسانية الأصيلة إزاء رجل يتم إعدامه.

على أثر بث هذا الشريط اتسعت موجة الغضب والاستنكار مجدداً لتشمل هذه المرة إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش بعد ان انتابها حرج شديد أمام الرأي العام الأمريكي الذي فوجئ بأنّ دماء آلاف القتلى وتضحيات عشرات الآلاف من جرحى الجيش الأمريكي لم تحرر العراق من الاستبداد، ولم تنشر الحرية والديمقراطية في ربوعه، ولم تجعل من العراق (الامريكي) الجديد نموذجا جاذبا وملهماً لنشر قيم الديمقراطية والحداثة والمدنية في الشرق الاوسط (الجديد) ، بل أحالته إلى غنيمة سهلة وهدية مجانية لميليشيات طائفية دموية تتبنى مشروعا ظلامياً لدولة دينية كهنوتية شمولية استبدادية ، حيث سمع المشاهدون ـ بكل وضوح ـ هتافات طائفية من بينها الهتاف بحياة مقتدى الصدر قائد جيش المهدي الذي وصفته الإدارة الأمريكية بأنه يهدد حياة العراقيين وأمنهم واستقرارهم ، ويضم فرق الموت التي تنظم يوميا عشرات المجازر الجماعية ، وتتحمل المسؤولية عن قتل وتصفية عشرات الآلاف من المواطنين العراقيين الذين يتم اختطافهم وتعذيبهم وقتلهم على أساس طائفي ومذهبي في مختلف انحاء العراق .

أثار ظهور هذا الشريط جدلاً واسعاً في داخل العراق وخارجه ، واللافت للنظر ان الأمريكيين حرصوا على التأكيد بأنّ الذين حضروا إلى مكان الإعدام تعرضوا لتفتيش دقيق من قبل القوات الأمريكية التي كانت تتولى حمايته باستثناء موفق الربيعي الذي وجهت إليه أصبع الاتهام بالمسؤولية عن تصوير ذلك الشريط بهاتفه النقال ، وما تضمنه من هتافات طائفية أظهرت عملية الإعدام في لبوس طائفي انتقامي مقيت، ولعل ذلك يفسر قيام الجانب الأمريكي بممارسة ضغوط على الحكومة العراقية لتسليم جثمان الرئيس صدام إلى القوات الأمريكية ونقله بطائرة أمريكية بصورة مستعجلة إلى مسقط رأسه في العوجة ودفنه في مسجد يحمل اسمه وبإشراف أقاربه وأبناء عشيرته، بعد أن كشف الأمريكيون النقاب عن ضغوط مارستها الحكومة العراقية للإسراع في إعدام صدام وإخفاء جثمانه في موقع حكومي سري حتى لا يتحول قبره الى مزار.

مما له دلالة عميقة أنّ الحكومة العراقية حاولت طباخة كافة المسوغات القانونية لإعدام صدام حسين، لكنها لم تجد مسوغا قانونيا يبرر إعدامه في عيد الأضحى المبارك، حيث ينص القانون العراقي على منع تنفيذ أحكام الإعدام في أيام الإجازات الرسمية والأعياد الدينية والوطنية، الأمر الذي أثار غضب المسلمين في كل أنحاء العالم وشاركهم في ذلك أتباع الأديان السماوية الأخرى، فما كان من حكومة المالكي سوى إعلان عيد الأضحى في اليوم التالي لإعدام صدام حسين وهو يوم الأحد على غرار ما فعلته الحكومة الإيرانية ، مخالفة بهذا الموقف الطائفي الشاذ ملايين الحجاج الذين احتفلوا يوم السبت بعيد الأضحى، وقد ترتب على هذا الموقف المخالف تفاقم موجة الغضب والاستنكار للطابع الطائفي الذي أحاط بإعدام الرئيس السابق صدام حسين .

على طريقة وجدتها حاولت حكومة المالكي البحث عن مخرج للمأزق الذي أوقعها فيه بث الشريط المصور بهاتف نقال وما يتضمنه من هتافات طائفية وهتاف بحياة مقتدى الصدر ، حيث أعلنت بعد يومين عن اعتقال الشخص الذي صور وقائع الاعدام بهاتفه النقال واحالته للتحقيق بسبب قيامه بالتصوير وتسريب الشريط الى وسائل الاعلام عبر شبكة الانترنت ، وبهذا تكون حكومة المالكي قد دخلت مأزقاً جديدا حين حاولت اختزال المشكلة بالمصور الذي قام بالتصوير على هاتفه النقال متجاهلة ان المشكلة الحقيقية تكمن في الطابع الطائفي الذي ساد عملية الاعدام والشعارات والهتافات الطائفية التي رددها الحاضرون أثناء عملية التنفيذ بما فيها الهتاف بحياة مقتدى الصدرقائد ميليشيات جيش المهدي الذي تتهمه الولايات المتحدة بالمسؤولية عن المجازر الجماعية اليومية التي تنفذها فرق الموت في العراق على اساس طائفي ومذهبي !!

ما من شك في ان النهاية المأساوية لصدام حسين تعود الى عوامل عديدة من بينها أخطاء صدام حسين أثناء وجوده في الحكم ، لكن ذلك لا ينفي خطورة الأخطاء الكبيرة التي ارتكبتها الولايات المتحدة الأميريكية في مجرى تعاملها مع العراق عندما كان يحكمه صدام حسين وبعد سقوط نظام حكمه بعد الاحتلال.

من نافل القول ان العراق شهد ولا يزال يشهد منذ اجتياح قوات الاحتلال لأراضيه ومياهه وأجوائه وسقوط الدولة ومؤسساتها مأساة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الحديث. وكما هو معروف فقد حاولت كارتيلات الصناعات العسكرية والمؤسسات الصهيونية النافذة في الولايات المتحدة الأمريكية تسويق مشروع احتلال العراق تحت ذرائع مختلفة بدءا بمكافحة انتشار الأسلحة النووية ومصادرة مخزون مزعوم من هذه الاسلحة تخفيه الحكومة العراقية داخل العراق ، مروراً بمكافحة الإرهاب بذريعة وجود علاقة مزعومة بين العراق وتنظيم (القاعدة)، وانتهاء بنشر الديمقراطية في الشرق الأوسط الجديد من خلال بناء نموذج ديمقراطي في العراق (الأمريكي) الجديد، يكون ملهما وجاذبا للتحولات الديمقراطية في الشرق الأوسط الكبير بحسب أجندة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية!!

والحال أنّ محصّلة احتلال العراق جاءت مناقضة للذرائع التي استخدمت كغطاء لإسقاط الدولة العراقية الحديثة والرئيس صدام حسين وحكومته، حيث اتضح خلو العراق من أي أسلحة نووية، فيما فشل مشروع نشر الديمقراطية — بالمعايير الأمريكية والأوروبية — في هذا البلد الذي تحول من دولة علمانية تتعايش فيها القوميات والأديان والمذاهب إلى كانتونات تحكمها ميليشيات طائفية وعرقية متناحرة، ويذبح فيها مئات الأبرياء يوميا في مجازر جماعية على أساس الاسم أو بطاقة الهوية أو الانتماء الديني والمذهبي، كما تحولت الساحة العراقية تحت ظل الاحتلال الأمريكي إلى بؤرة جاذبة وملاذ آمن للجماعات المتطرفة والإرهابية من مختلف أصقاع الأرض، وما يترتب على ذلك من انتشار لخطر الارهاب الذي يهدد الأمن والسلم الدوليين.

ومما يثير الدهشة أنّ الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تمارس سياسات ساذجة وفاشلة، تتميز بالتخبط والمعايير المزدوجة، فهي تحارب النفوذ الإيراني في لبنان كما تقول وتقدم — في الوقت نفسه — العراق هدية سخية ومجانية لإيران التي تتحمل المسؤولية إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب التي تم دفع العراق إليها مطلع الثمانينات في القرن الماضي بتحريض ودعم مباشرين من الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الأطراف العربية، حيث لا يمكن فصل مأساة الحرب العراقية الإيرانية أواخر القرن الماضي ، عن تداعياتها اللاحقة التي تمثلت في خطيئة احتلال العراق للكويت، ومأساة سقوط العراق الحديث على أيدي قوات الاحتلال الأمريكية والقوات الأجنبية والمليشيات الطائفية المتحالفة معها.

لقد دفع العراق الحديث ثمناً باهظاً من دماء العراقيين وموارد العراق وحقوق الأجيال العراقية القادمة في ظل الاحتلال، حيث أدى سقوط الدولة المدنية الحديثة إلى تراجع قيم ومؤسسات الحداثة والمدنية وبروز خطر انقسام العراق إلى دويلاتٍ تحكمها ميليشيات دينية وطائفية وعرقية، وتسفك فيها يوميا الدماء على إيقاعات طبول الحرب الأهلية التي تعتبر من أبرز ملامح (العراق الأمريكي الجديد).

ومما له دلالة خطيرة ان يتم تنفيذ الحكم بإعدام الرئيس العراقي صدام حسين وسط هتافات طائفية ونزعات انتقامية مقيتة في خضم هذا المشهد المأساوي الدموي الذي حوّل العراق إلى بلد تتصارع فيه النزعات الطائفية والمذهبية والعرقية، الأمر الذي يُحتم إدانة هذا الحكم وطريقة تنفيذه التي لا يمكن فصلها عن التداعيات الخطيرة والمأساوية للمشهد السياسي الراهن في العراق المحتل.

ولئن كانت كل مخرجات الاحتلال الأمريكي للعراق غير شرعية فإن الحكم بإعدام الرئيس صدام حسين ليس شرعيا هو الآخر بوصفه أسير حرب ، بل ويُعد عملا مهينا لمبادئ الشرعية الدولية وقيم المجتمع الدولي المتحضر التي تتعارض مع ما وصل إليه الوضع الحالي في العراق الذي قدّم للمجتمع الدولي المتحضر دولة مدنية حديثة ، منذ تأسيسها في العقد الثالث من القرن العشرين الماضي، حتى سقوطها بنيران القوات الأمريكية الغازية في مارس ٢٠٠٣م ، ناهيك عن أن مؤشرات المشهد السياسي العراقي الراهن تدل على أن إعدام الرئيس صدام حسين لن يضع نهاية مأمونة للمآسي التي عاشها العراق وانعكست مخاطرها على محيطه الاقليمي بسبب أخطاء نظام حكم الرئيس صدام حسين ، بل أن حكم الاعدام واسلوب تنفيذه سيمهدان لبداية مأساة جديدة يعيشها العراق حاليا ، ولن يسلم منه محيطه الاقليمي بسبب الأخطاء القاتلة للغزاة الذين يحتلون العراق والمليشيات الطائفية المتحالفة معهم . !!

نقلاً عن صحيفة (٢٦ سبتمبر)

الطائفية.. وحظوظ الأمريكان!

مشاري الذايدي

لو كنا في غير هذه الظروف السياسية الساخنة، هل كان بالإمكان أن يثير كتاب للشيخ الراحل محمد مهدي شمس الدين جدلا في قاهرة الأزهر وسيدنا الحسين؟

هذا الشيخ الشيعي اللبناني، الذي يمثل صورة من أرفع صور الاعتدال الديني، أصبح موضوعا إشكاليا وشائكا، ورأى البعض في بلاد الكنانة، أن «ترويج» كتابه شكل من أشكال التبشير بالمذهب الشيعي في قلعة من قلاع الإسلام السني!

لو كنا في غير هذه الظروف والغليان السياسي في المنطقة، والذي تسهم إيران في تصعيده بسهم وافر، هل كان بالإمكان أن يثار هذا الجدل الديني، والتاريخي، والاجتماعي، حول المذهب الشيعي، أو حول مذهب أهل السنة ؟!

في كثير من الأحوال، فتش عن العامل السياسي في الاشتباكات والصراعات ذات الطابع الديني، وإلا فما الذي يفسر لك تقارب منظمة حماس (السنية) مع نظام إيران ذي (الصبغة الخمينية) ؟، أو يفسر لك من قبل سرعة مساندة الإخوان المسلمين للخميني منذ أن كان في باريس، كما في اعترافات يوسف ندا «رئيس حكومة الظل» للإخوان المسلمين في العالم، حسب لقاء احمد منصور معه في برنامج «شاهد على العصر» في وقت سابق.

الصراع السياسي هو وقود كثير من الخلافات الطائفية والمذهبية في التاريخ، وليس وقفا على تاريخنا الإسلامي وحسب.

وبالعودة الى تاريخنا الإسلامي، والى رحى الخلاف الشيعي السني، الذي اندلع مع بداية أول سطر في التاريخ الإسلامي بعد وفاة نبي الإسلام، وانفجر بشكل دموي في معارك الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية، واستمر يشطر مياه الذاكرة الإسلامية إلى ضفتين... منذ تلك الحقبة إلى يومنا المعاصر، لم يتغير شيء، تهدأ الأمور وتثور تبعاً لميزان القوى بين الطرفين.

الصراع السياسي، والتهديد المباشر، هما أكبر ما يحرك مياه الأدبيات الطائفية، والتاريخ يخبرنا الكثير في هذا الصدد. ومن ذلك ملحمة الصراع بين العثمانيين والصفويين، تلك الملحمة التي دشنت بدايتها الهائلة في معركة «جالديران» الشهيرة في أغسطس سنة ١٥١٤ ميلادية بين الشاه إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفوية ومكرس الثقافة الصفوية، وبين السلطان العثماني سليم الأول، وهي المعركة التي كان دافع السلطان سليم الأول فيها هو حشر «الإمبراطورية» الصفوية الطامحة للتوسع، تحت شعار الطائفية الشيعية، والغريب في الأمر أن جد الأسرة الصفوية، الولي صفي الدين الاردبيلي، كان زاهدا صوفيا سنيا، ثم بالتدريج بدأت سلالته بالتحول إلى المذهب الشيعي، وفق تعقيدات معينة، لنصل إلى لحظة الشاه إسماعيل الصفوي.

بالغ الشاه اسماعيل في تشيعه، وقمع السنة، ونشر المذهب في إيران، وطمع في العراق وفي الأراضي المجاورة لإيران من جهة الشرق والشمال، ولطمعه في العراق دوافعه المعلومة حيث العتبات المقدسة.

والأمر المثير الآخر في القصة، أن والد السلطان سليم الأول، وهو «بايزيد» كان يتراسل مع الشاه الصفوي، وكان محبا للشعر والفلسفة، ولم يكن يشعر بوجوب منازلة الصفويين، ولما تواترت الأنباء عن القمع الذي يقوم به الشاه ضد السنة، بدأ السلطان العثماني ينصحه بالرفق وعدم الاعتداء على السنة، بحكم مسؤولية السلطان عن رعيته، لكن السلطان سليم الأول لم يكن يرى الأمر كذلك، وكان تقديره أن الامبراطورية الصفوية تشكل خطرا حقيقيا على الدولة العثمانية، وأن حماسة الشاه في نشر الصيغة المتشددة من التشيع تأتي في إطار سعي إسماعيل إلى توفير أرضية ثقافية ملائمة لتمدد الدولة الصفوية. وهنا يشتبك السياسي بالديني والاجتماعي. وفي الأصل فربما كان سبب، أو قل من بين الأسباب، اختيار أسلاف إسماعيل للتشيع ، وتكريس إسماعيل له ، الهاجس السياسي ، في سياق خلق هوية ثقافية للإمبراطورية الجديدة ، هوية تقوم على التمايز المذهبي والاختلاف في المرجعية التاريخية والذاكرة المحلية من أجل استكمال أدوات الهوية المختلفة... ولنا هنا أن لا نستغرب ذلك، فأطماع الإنسان، على كثرتها، لا حدود لها، ولا محرمات عليها، حين تقترن بالسلطة.

على كل حال، نجح العثمانيون في محاصرة التمدد الصفوي في حدوده الحالية، لكن جبهة الصراع المفتوحة ظلت في العراق، فمرة يدخل الشاه الصفوي الى بغداد فينكل بالسنة، ومرة يدخل السلطان العثماني فينكل بالشيعة، ويعمر قبر أبي حنيفة ... وهكذا.

التشيع بالنسبة لـ«دولة» إيران، أيا كان النظام الحاكم فيها ، حتى ولو كان علمانيا تقريبا ، هو قناة توسع سياسي قومي خارج الحدود الإيرانية ، وبالذات في العراق، ومن هنا كانت أهمية الأصوات الشيعية الوطنية التي تؤكد دوما على التمييز بين التشيع العربي والتشيع الإيراني أو «الصفوي».. بصرف النظر عن تجسيد هذا الفرق على الأرض.

يحدثنا معروف الرصافي في كتابه «الرسالة البغدادية» كيف كان شاه بهلوي، وهو رجل علماني، أو هو «أتاتورك إيران» لكنه مع ذلك كان شديد النصرة لحوزة النجف وللخط الشيعي المرتبط بإيران لأسباب سياسية بحتة، مع انه كان يحارب علماء الدين الشيعة في الداخل، أي أن الأمر برمته يشتعل بمحرك الطموح السياسي، حتى ولو بدا لنا ذا صبغة دينية بعيدة.

هذا الأمر لم يكن محصورا بالصفويين ، فسلاطين بني عثمان حاربوا الصفويين بكل الأوراق المتاحة، واشتدت في تلك المرحلة من الصراع بين الصفويين والعثمانيين حرب الفتاوى المتبادلة، وكانت حربا منهجية، ولذلك فإن أكثر الأدبيات الشيعية المتطرفة، والتي «ثقفنت» التشيع ومنحته موسوعاته الكبرى، مثل «بحار الأنوار» للمجلسي ذات المجلدات التي ناهزت المائة، تنتمي لتلك الحقبة، وهو أمر لو منح المجلسي كل عمره لما أطاق كتابته، خصوصا ان كتاب «بحار الأنوار» ليس إلا كتابا واحدا من كتب المجلسي، الأمر الذي يدل على وجود جهد (دولتي مؤسسي) كما يلمح الى ذلك علي الوردي.

وأيضا في تلك اللحظة تواترت فتاوى شيوخ الإسلام في «الاستانة» وغيرها ضد الشيعة، تبعا لسخونة المواجهة أو برودتها بين السلطان والشاه، ويذكر الوردي أيضا كيف انه في إحدى فترات الهدنة خرجت فتوى من الاستانة لينة الجانب وتتحدث عن الشيعة بلغة ودية، ثم لما خربت الهدنة وتوتر الوضع مجددا بين الطرفين، اشتعلت حرب الفتاوى مجددا.

لماذا نتحدث عن الماضي البعيد؟! دعونا نشير إلى القريب والحاضر، فمشروع التقريب بين السنة والشيعة تحمس له شيوخ الأزهر في مصر، وجماعة الإخوان حينما كان التشيع لا يمثل هوية سياسية، بالنسبة لشيوخ الأزهر مثل الشيخ شلتوت، أو يمثل حليفا سياسيا في الجماعات ذات النهج الحركي مثل جماعة نواب صفوي، الذي ألقى محاضرة شهيرة برعاية الإخوان في القاهرة أوائل الخمسينات.

وحينما نجحت الثورة الخمينية «الإسلامية الحركية» نظر لها الإخوان المسلمون بود، كما في حديث يوسف ندا، وخبر وفود الإخوان لطهران، لكن حينما أصبحت الثورة تريد تصدير نفسها، واندلعت الحرب، باردة وساخنة بين الخليج والعراق من طرف ، وبين إيران الخميني من طرف آخر، انكفأ مشروع التقريب، وتقدم مشروع المواجهة، وتقاطرت الأدبيات المتبادلة التي تهاجم الطرف الآخر مستندة الى ارث الصراع الطويل بين السنة والشيعة. ولكن أيضا، وحينما وصل رفسنجاني إلى الحكم لاحقا، وتعب رجال الثورة، وبدأت الثورة تصبح دولة، عادت لغة التقريب و«ثقافة التقريب» بين العالم السني والعالم الشيعي، وظل «شهر العسل» هذا حتى اندلعت مشكلة العراق، ودخلت إيران أحمدي نجاد بقوة على الخط وألقت بظلها على رجالها هناك، وبزغ «الهلال الشيعي». بالمعنى السياسي للتشيع .حتى انبعثت معارك الماضي مجدداً...

نحن الآن في بداية فصل جديد من فصول الحكاية السنية الشيعية، وهي حكاية، في كل فصولها، كانت مطلية بالدين والعقائد والخلافات اللاهوتية... الخ ولكنها مبطنة بالخلاف السياسي.

المثير للسخرية، أننا نكرر أساليب الماضي بحذافيرها، والمثير للسخرية أكثر أن هذه الأساليب دائما تنجح وتفعل فعلها ! فهل المشكلة في انه قد قدر على العرب والمسلمين أن يخففوا في استيعاب وهضم هوية وطنية عابرة للطوائف والأعراق... أين الخلل ؟

ستنتهي المشكلة مع إيران، إما بالحرب أو بالسلم ، أو يقضي الله ما لا تعلمون داخل إيران ... لكن من ينهي هذه الحرب الخالدة بين المسلمين أنفسهم، هذه الحرب التي وقودها الناس والأمن والنور....؟!

لو كنا في غير هذه الظروف السياسية الساخنة، هل كان بالإمكان أن يثير كتاب للشيخ الراحل محمد مهدي شمس الدين جدلا في قاهرة الأزهر وسيدنا الحسين؟

هذا الشيخ الشيعي اللبناني، الذي يمثل صورة من أرفع صور الاعتدال الديني، أصبح موضوعا إشكاليا وشائكا، ورأى البعض في بلاد الكنانة، أن «ترويج» كتابه شكل من أشكال التبشير بالمذهب الشيعي في قلعة من قلاع الإسلام السني!

و كنا في غير هذه الظروف والغليان السياسي في المنطقة، والذي تسهم إيران في تصعيده بسهم وافر، هل كان بالإمكان أن يثار هذا الجدل الديني، والتاريخي، والاجتماعي، حول المذهب الشيعي، أو حول مذهب أهل السنة ؟!

في كثير من الأحوال، فتش عن العامل السياسي في الاشتباكات والصراعات ذات الطابع الديني، وإلا فما الذي يفسر لك تقارب منظمة حماس (السنية) مع نظام إيران ذي (الصبغة الخمينية) ؟، أو يفسر لك من قبل سرعة مساندة الإخوان المسلمين للخميني منذ أن كان في باريس، كما في اعترافات يوسف ندا «رئيس حكومة الظل» للإخوان المسلمين في العالم، حسب لقاء احمد منصور معه في برنامج «شاهد على العصر» في وقت سابق.

الصراع السياسي هو وقود كثير من الخلافات الطائفية والمذهبية في التاريخ، وليس وقفا على تاريخنا الإسلامي وحسب.

وبالعودة إلى تاريخنا الإسلامي، والى رحى الخلاف الشيعي السني، الذي اندلع مع بداية أول سطر في التاريخ الإسلامي بعد وفاة نبي الإسلام، وانفجر بشكل دموي في معارك الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية، واستمر يشطر مياه الذاكرة الإسلامية إلى ضفتين... منذ تلك الحقبة إلى يومنا المعاصر، لم يتغير شيء، تهدأ الأمور وتثور تبعاً لميزان القوى بين الطرفين.

الصراع السياسي، والتهديد المباشر، هما أكبر ما يحرك مياه الأدبيات الطائفية، والتاريخ يخبرنا الكثير في هذا الصدد. ومن ذلك ملحمة الصراع بين العثمانيين والصفويين، تلك الملحمة التي دشنت بدايتها الهائلة في معركة «جالديران» الشهيرة في أغسطس سنة ١٥١٤ ميلادية بين الشاه إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفوية ومكرس الثقافة الصفوية، وبين السلطان العثماني سليم الأول، وهي المعركة التي كان دافع السلطان سليم الأول فيها هو حشر «الإمبراطورية» الصفوية الطامحة للتوسع، تحت شعار الطائفية الشيعية، والغريب في الأمر أن جد الأسرة الصفوية، الولي صفي الدين الاردبيلي، كان زاهدا صوفيا سنيا، ثم بالتدريج بدأت سلالته بالتحول إلى المذهب الشيعي، وفق تعقيدات معينة، لنصل إلى لحظة الشاه إسماعيل الصفوي.

بالغ الشاه اسماعيل في تشيعه، وقمع السنة، ونشر المذهب في إيران، وطمع في العراق وفي الأراضي المجاورة لإيران من جهة الشرق والشمال، ولطمعه في العراق دوافعه المعلومة حيث العتبات المقدسة.

والأمر المثير الآخر في القصة، أن والد السلطان سليم الأول، وهو «بايزيد» كان يتراسل مع الشاه الصفوي، وكان محبا للشعر والفلسفة، ولم يكن يشعر بوجوب منازلة الصفويين، ولما تواترت الأنباء عن القمع الذي يقوم به الشاه ضد السنة، بدأ السلطان العثماني ينصحه بالرفق وعدم الاعتداء على السنة، بحكم مسؤولية السلطان عن رعيته، لكن السلطان سليم الأول لم يكن يرى الأمر كذلك، وكان تقديره أن الامبراطورية الصفوية تشكل خطرا حقيقيا على الدولة العثمانية، وأن حماسة الشاه في نشر الصيغة المتشددة من التشيع تأتي في إطار سعي إسماعيل إلى توفير أرضية ثقافية ملائمة لتمدد الدولة الصفوية. وهنا يشتبك السياسي بالديني والاجتماعي. وفي الأصل فربما كان سبب، أو قل من بين الأسباب، اختيار أسلاف إسماعيل للتشيع ، وتكريس إسماعيل له ، الهاجس السياسي ، في سياق خلق هوية ثقافية للإمبراطورية الجديدة ، هوية تقوم على التمايز المذهبي والاختلاف في المرجعية التاريخية والذاكرة المحلية من أجل استكمال أدوات الهوية المختلفة... ولنا هنا أن لا نستغرب ذلك، فأطماع الإنسان، على كثرتها، لا حدود لها، ولا محرمات عليها، حين تقترن بالسلطة.

على كل حال، نجح العثمانيون في محاصرة التمدد الصفوي في حدوده الحالية، لكن جبهة الصراع المفتوحة ظلت في العراق، فمرة يدخل الشاه الصفوي الى بغداد فينكل بالسنة، ومرة يدخل السلطان العثماني فينكل بالشيعة، ويعمر قبر أبي حنيفة ... وهكذا.

التشيع بالنسبة لـ«دولة» إيران، أيا كان النظام الحاكم فيها ، حتى ولو كان علمانيا تقريبا ، هو قناة توسع سياسي قومي خارج الحدود الإيرانية ، وبالذات في العراق، ومن هنا كانت أهمية الأصوات الشيعية الوطنية التي تؤكد دوما على التمييز بين التشيع العربي والتشيع الإيراني أو «الصفوي».. بصرف النظر عن تجسيد هذا الفرق على الأرض.

يحدثنا معروف الرصافي في كتابه «الرسالة البغدادية» كيف كان شاه بهلوي، وهو رجل علماني، أو هو «أتاتورك إيران» لكنه مع ذلك كان شديد النصرة لحوزة النجف وللخط الشيعي المرتبط بإيران لأسباب سياسية بحتة، مع انه كان يحارب علماء الدين الشيعة في الداخل، أي أن الأمر برمته يشتعل بمحرك الطموح السياسي، حتى ولو بدا لنا ذا صبغة دينية بعيدة.

هذا الأمر لم يكن محصورا بالصفويين ، فسلاطين بني عثمان حاربوا الصفويين بكل الأوراق المتاحة، واشتدت في تلك المرحلة من الصراع بين الصفويين والعثمانيين حرب الفتاوى المتبادلة، وكانت حربا منهجية، ولذلك فإن أكثر الأدبيات الشيعية المتطرفة، والتي «ثقفنت» التشيع ومنحته موسوعاته الكبرى، مثل «بحار الأنوار» للمجلسي ذات المجلدات التي ناهزت المائة، تنتمي لتلك الحقبة، وهو أمر لو منح المجلسي كل عمره لما أطاق كتابته، خصوصا ان كتاب «بحار الأنوار» ليس إلا كتابا واحدا من كتب المجلسي، الأمر الذي يدل على وجود جهد (دولتي مؤسسي) كما يلمح الى ذلك علي الوردي.

وأيضا في تلك اللحظة تواترت فتاوى شيوخ الإسلام في «الاستانة» وغيرها ضد الشيعة، تبعا لسخونة المواجهة أو برودتها بين السلطان والشاه، ويذكر الوردي أيضا كيف انه في إحدى فترات الهدنة خرجت فتوى من الاستانة لينة الجانب وتتحدث عن الشيعة بلغة ودية، ثم لما خربت الهدنة وتوتر الوضع مجددا بين الطرفين، اشتعلت حرب الفتاوى مجددا.

لماذا نتحدث عن الماضي البعيد؟! دعونا نشير إلى القريب والحاضر، فمشروع التقريب بين السنة والشيعة تحمس له شيوخ الأزهر في مصر، وجماعة الإخوان حينما كان التشيع لا يمثل هوية سياسية، بالنسبة لشيوخ الأزهر مثل الشيخ شلتوت، أو يمثل حليفا سياسيا في الجماعات ذات النهج الحركي مثل جماعة نواب صفوي، الذي ألقى محاضرة شهيرة برعاية الإخوان في القاهرة أوائل الخمسينات.

وحينما نجحت الثورة الخمينية «الإسلامية الحركية» نظر لها الإخوان المسلمون بود، كما في حديث يوسف ندا، وخبر وفود الإخوان لطهران، لكن حينما أصبحت الثورة تريد تصدير نفسها، واندلعت الحرب، باردة وساخنة بين الخليج والعراق من طرف ، وبين إيران الخميني من طرف آخر، انكفأ مشروع التقريب، وتقدم مشروع المواجهة، وتقاطرت الأدبيات المتبادلة التي تهاجم الطرف الآخر مستندة الى ارث الصراع الطويل بين السنة والشيعة. ولكن أيضا، وحينما وصل رفسنجاني إلى الحكم لاحقا، وتعب رجال الثورة، وبدأت الثورة تصبح دولة، عادت لغة التقريب و«ثقافة التقريب» بين العالم السني والعالم الشيعي، وظل «شهر العسل» هذا حتى اندلعت مشكلة العراق، ودخلت إيران أحمدي نجاد بقوة على الخط وألقت بظلها على رجالها هناك، وبزغ «الهلال الشيعي». بالمعنى السياسي للتشيع .حتى انبعثت معارك الماضي مجدداً...

نحن الآن في بداية فصل جديد من فصول الحكاية السنية الشيعية، وهي حكاية، في كل فصولها، كانت مطلية بالدين والعقائد والخلافات اللاهوتية... الخ ولكنها مبطنة بالخلاف السياسي.

المثير للسخرية، أننا نكرر أساليب الماضي بحذافيرها، والمثير للسخرية أكثر أن هذه الأساليب دائما تنجح وتفعل فعلها ! فهل المشكلة في انه قد قدر على العرب والمسلمين أن يخففوا في استيعاب وهضم هوية وطنية عابرة للطوائف والأعراق... أين الخلل ؟

ستنتهي المشكلة مع إيران، إما بالحرب أو بالسلم ، أو يقضي الله ما لا تعلمون داخل إيران ... لكن من ينهي هذه الحرب الخالدة بين المسلمين أنفسهم، هذه الحرب التي وقودها الناس والأمن والنور....؟!

مشاري الذايدي

إنهم يعيدون إنتاج الطائفية

السيد ولد أباه

لا أحد ينكر أن الساحة العراقية تعيش هذه الأيام فتنة طائفية مدمرة، أكلت الأخضر واليابس، وغدت تهدد وحدة الكيان الوطني نفسه، كما بدت نذرها تسجل في ساحات عربية وإسلامية أخرى عديدة.

وتسير أغلب التحليلات الرائجة إلى النظر إلى هذه الفتنة في سياق الصراع العقدي القديم بين الجماعتين الرئيسيتين في النسيج الإسلامي (السنة والشيعة).

من هذا المنظور يقرأ الصراع الدائر حاليا في العراق، بأنه ثأر من اضطهاد الدولة السنية التي حكمت العراق الحديث، للأغلبية الشيعية التي أصبحت تتمتع بالسلطة المكفولة لها بالموازين الديمقراطية.

وللتدليل على هذه المقاربة، لا تغور الأدبيات العقدية والسياسية التي تستخدم القاموس التراثي الشيعي الوسيط في تكريس المعادلة السياسية الحديثة، في الوقت الذي تقدم الأطياف المتنوعة التي تتشكل منها المقاومة العراقية وحركات الإرهاب النشطة بأنها ردة فعل سنية على السيطرة الشيعية.

ولئن كانت هذه الصورة المبسطة مغرية لاستكناه المعادلة العراقية المعقدة، إلا أن تاريخ الأفكار يبين لنا أن المفاهيم والرموز والمعتقدات عندما تنتقل من سياقاتها الأصلية تتغير رهاناتها، ووظائفها وإن لم تتغير ملفوظاتها وصيغها الدلالية.

وفقا لهذا المبدأ لا معنى للنظر إلى الصراع الدائر حاليا في العراق بأنه صراع عقدي سني-شيعي، حتى ولو كان في أحد أهم جوانبه صراعا تؤدي فيه المؤسسة الشيعية دورا محوريا.

فالفرق واسع بين التشيع كهوية عقدية والتشيع كتركيبة مؤسسية لا تستوعب بالضرورة هذه الهوية، على الرغم من منزلة المرجعية والإمامة في البنية المذهبية الشيعية.

ففضلا عن كون الطائفة لم تعد المحدد الرئيس في هوية المواطن العراقي الحديث الذي صاغت الدولة الوطنية وعيه السياسي فإن المؤسسة الدينية نفسها خضعت للتحول نفسه، وأرغمت على إعادة بناء هويتها وتركيبتها وفق التحولات الجديدة.

وغني عن البيان أن الدولة العراقية الحديثة في نشأتها لم تكن طائفية بل بنيت على أساس النموذج البريطاني، وأريد لها أن تكون كيانا فيدراليا يستوعب التنوع القومي والديني والطائفي. كما أن الهوية الإيديولوجية (اليسارية ثم القومية) للدولة الجمهورية التي تلت انهيار المملكة الهاشمية تجاوزت الاستقطاب الطائفي وألغته. صحيح أن فترة حكم صدام حسين شهدت (خصوصا بعد دخوله في الحرب مع إيران) مواجهة حادة